النقد الجينيالوجي للتراث عند نيتشه بين ترحيب المفكرين العرب ورفضهم

جمال مفرج (*)

إن نيتشه هو أكثر الفلاسفة تأثيراً فى عصرنا ، فإن قليلين هم الذين بلغوا مكانة وتأثيراً يمكن مقارنتهما بما بلغه . وليس هناك فيلسوف اكتسب هذه السمعة ، ومارس هذا التأثير فى الثقافة المعاصرة.

ومما لا شك فيه أن العنصر الرئيسى الذى يفسر ما يلقاه عمله وشخصه من اهتمام متصل حتى الوقت الراهن يعود إلى أن الناس يرون فيه «السائل الكبير» الذى عرفه كيف «يخمن» القضايا الخاصة التى ينهك الفكر الغربى نفسه فى حلها فى أيامنا الحاضرة، وبالفعل، فقد كان نيتشه يفخر دائماً بأنه يتحدث للمستقبل، وبأن أفكاره لن تفهم إلا بعد مائة عام، وكان يعتقد أن مكانته الفلسفية مستقلة كل الاستقلال؛ على الرغم من شعور بأنه وريث آلاف السنين. وقد كان يعترف دائماً بأنه «فى غير آوانه» كما تقول «الاعتبارات» ، وبأنه متقدم على عصره، وكان يعيش بهذه الفكرة الدائمة الملازمة له وهى أن عمله لن يفهم إلا ابتداء من القرن العشرين وهو ما يشير إليه فى كتابه «العلم المرح» حيث يقول: «نحن أطفال المستقبل، فكيف يمكننا أن نكون فى منزلنا، فى مثل هذا الوقت الحاضر»[1].

إن نيتشه ولم يكن حالماً وصاحب رؤى وناسج أساطير فقط، بل كان بالإضافة إلى ذلك ناقدا ومتسائلاً وهداماً كبيراً. لقد بدا وجه من أوجه تفكيره خيالياً تنبئياً، وبدا وجه آخر منه انتقادياً شديدا. وهكذا فلقد كان واحدا من أولئك الذين رفضوا الانخداع ، وأعطانا، كناقد تشخيصاً وتحليلاً لثقافة الإنسانية من أشد ما عرفه عصرنا

(*) قسم الفلسفة - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة منتورى بقسنطينة.

قسوة وبعدا عن الشفقة . ولذلك لم يكتسب الرضا والعطف من طرف معاصريه، ولم يستهو أحدا ممن احتك بهم احتكاكاً مباشراً. لقد كانت طباعه القوية، وتفكيره المستقل ، سبباً فى سخط الناس عليه وإحجامهم عن إيلائه المودة والحب فقد راح يناظر الفلاسفة ، ويجادل أهل الديانات، ويسفه أحلام كثير من العلماء ويتعرض بما يؤذى ويشين لرجال يعتبرون من السلف الصالح فى نظر العامة والخاصة على السواء.

فنحن إذن من نيتشه أمام رجل يحتل فى تاريخ الفكر الغربى الحديث مرتبة مثيرة ومحيرة جداً: مثيرة لأنه تحدى كل الأفكار والمعتقدات والقيم التقليدية فى عصره، ومحيرة لأن نتاجه، الذى هو شديد الإثارة، أضحى فجأة ، وبعد إهمال طويل استمر طيلة حياته، زيا تحول إلى شىء من الشعار العقائدى فى أوروبا كلها.

هذا، وكما أيقظ نيتشه ، بعد موته، اهتمام المفكرين الغربيين فإنه إيقظ لدى المفكرين العرب اهتماماً خاصاً جداً. فمنهم من حرك فيه عوامل البغض العميق، ومنهم من ملأ قلبه بالإعجاب والتمجيد. وتوجه نحوه مؤلفون مشاهير عديدون: فرح انطوان، وسلامة موسى، وعبدالرحمن بدوى، وفؤاد زكريا، وهشام شرابى وغيرهم. وأثر نيتشه فى الحياة الفكرية للعرب، حتى أنه يمكننا أن نقول أنه فاق فى هذا التأثير بقية الفلاسفة الآخرين كأرسطو وأفلاطون وديكارت وليبنتز وسبينوزا وكانط وهيجل.

ولقد توجه المفكرون العرب نحو نيتشه مسترشدين إما باعتبارات نظرية خالصة وإما باعتبارات ذرائعية. إن البعض يرون فى أفكاره «وسيلة لإصلاح العالم العربى المتخبط فى التقاليد البالية»، والبعض الثانى يرون فيها «وسيلة تفتح أمام الفرد آفاقاً وسيعة فى مجال القوة والثقة بالنفس وتحرير الحياة من المسكنة والذل»، و«التغلب على ما ورثته الأجيال من عقائد موهنة للعزم» والبعض الثالث يرون فيها «دعوة للبحث عن حقيقة غير محدودة» ، وينبغى القول أن الذين اتجهوا إلى نيتشه باعتبارات ذرائعية هم الغالبية، وخصوصاً مفكرى «النهضة» أو «التنوير».

لكن هذا التأثير للنيتشوية لم يكن مطلقاً ، فقد عارض بعض المفكرين العرب، ممن اهتموا بدراسة نيتشه، بصورة صريحة لبعض مصادراتها وأعرضوا عن الإقرار بما يترتب عليها من النتائج الإيديولوچية والدينية الملحدة. بل إن الذين رحبوا بنيتشه ترحيباً واسعاً، انضموا إلى هؤلاء الرافضين فى الإعراض عن بعض المسائل التى تعالجها النيتشوية. ولقد كان عدم الاهتمام بالمنهج الجينيالوجى الذى وضعه نيتشه هو أكبر دليل على ذلك. فقد رفض المفكرون العرب اللجوء إلى هذا المنهج الذى يضع موضع النقد كل المسائل التى يعالجها، ويضع الدين موضع السؤال، والذى كان «موت الإله» و «نهاية الميتافيزيقا» و «انهيار القيم» و«القضاء على الأخلاق» من النتائج المترتبة على تطبيقه، إذ لا توجد دراسة عربية واحدة اهتمت بالمنهج الجينيالوجى ونقله إلى الثقافة العربية، ومن ثم تطبيقه ، مثل بقية المناهج الحديثة، فى العلوم التراثية العربية والإسلامية. فلماذا هذا الحذر من المنهج الجينيالوجى؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال يتوجب علينا ، أن نُعرّف بهذا المنهج الذى تجاهله المثقفون العرب.

إن موضوع المنهج الجينيالوجى هو البحث عن الأصل ، فهو أساساً منهج تاريخى. وهو منهج يقترن ، من جهة، بالفيلولوچيا أو فقه اللغة لأنه ينظر إلى الظاهرة التى يدرسها كنص يجب التعرف عليه، أى يطرح مشكلة معنى الظاهرة، ويقترن، من جهة أخرى، بالجينيالوچيا التى تطرح قيمة المعنى ، من خلال البحث عن أصل الظاهرة.

وهكذا فإن أول ما يتوصل إليه نيتشه باستعمال المنهج الجينيالوجى باعتباره فقها للغة أو فيلولوچيا هو أن الوجود ليس واقعاً خاماً بل هو سلسلة تأويلات وكذلك الظواهر والأشياء وكل فعل للقوة. لذا فإن قيمة الأشياء متوقفة على المعنى الذى نعطيه إياها . ومن هنا فإن تاريخ ظاهرة ما يصبح هو تاريخ التأويلات المختلفة التى تتعاقب عليها، أو هو تاريخ تعدد المعانى(٢). فما من حدث، أو ظاهرة، أو كلمة أو فكرة إلا وله معان مختلفة. فهذا الشىء هو كذا حينا، وكذا أحياناً، أو له من المعانى

بقدر ما توجد قوى قادرة على الاستيلاء عليه. ولذلك كان نيتشه يقول - مثلا - إن حدث «موت الإله» هو حدث ذو معنى متعدد، وأنه ليس للدين معنى واحد، لأنه يخدم قوى متعددة. ومن هنا جاء النظر إلى الظواهر على أنها لغة؛ فهى لا تعبر عن شىء، وإنما هى تدل وتعنى. ولذا يؤكد نيتشه أن ما يهمنا هو معرفة الكيفية التى تسمى بها الأشياء لا معرفة ماهيتها[٣].

هذا، وتعدد معانى كل حدث هو تعدد يظل صامتاً لنا، لأن المعنى الذى ندركه والذى يتجلى لنا مباشرة قد لا يكون، فى الحقيقة، إلا معنى أضعف يخفى معنى آخر ويُغلفه. وهذا يعنى أن اللغة تُولّد الاعتقاد بأنها تتجاوز صورتها اللفظية الصرف، أو أن هناك أشياء أخرى تتكلم دون أن تكون لغة، كغريزة السيطرة التى تتخفى وراء الكلمات العديدة[٤]. وهذا يعنى أن ثقافة الإنسان اللغوية سيئة، وأن اللغة خائنة، لأنها تصور لنا عالما من الأشياء يخفى عنا العالم الحقيقى. يقول نيتشه فى هذا المعنى: «إن عبارة سيادة القوانين فى الطبيعة» القائلة بأن «كل شىء يحدث كما لو أن . . .» والتى تتحدثون عنها بكل هذا الفخر، يا علماء الفيزياء، لا وجود لها إلا بفضل تفسيركم وسوء ثقافتكم «اللغوية» فهى ليست أمرا واقعاً . . بل هى تكيف بشرى ساذج، وتشويه للمعنى. . فقد يأتى شخص يستطيع، بمقاصد وطرق للتفكير مضادة، أن يرى فى الطبيعة ذاتها، وفى الظواهر ذاتها، مجرد تنفيذ مستبد غاشم لمطالب القوة»[٥]. . ولهذا حلم نيتشه بفقه لغة جديد، وفاعل، يكون باستطاعته اختراق الأقنعة، واكتشاف من يتقنع وراء المعنى الظاهر ولأية غاية تجرى المحافظة على القناع؛ ففقه لغة لا يهتم بما تقوله الكلمات، وإنما يهتم بمن يمتلك سلطة الكلام، وبالقوى التى تتصارع فى اللغة، ومن خلالها، القوى التى تمتلك سلطة التأويل[٦].

وهذه الألسنية الفاعلة تضع أمامها اسئلة جوهرية تطرح لأول مرة، وبصورة جريئة: من يستخدم الكلمة؟ وعلى من يطبقها؟ وماذا ينوى من وراء ذلك؟ وماذا يريد وهو يقول تلك الكلمة؟ ومن إجابته على هذه الأسئلة، وبفضلها، يتوصل نيتشه إلى أن اللغة لم تكن أبداً أمراً طبيعياً وإلى أنها تعرضت إلى التحريف من

obeikandl.com

مختلف الإرادات ، وإلى أن أصلها نفسه كان بمثابة فعل من أفعال السلطة، وهكذا يبين نيتشه ، تطبيقاً لذلك، فى كتابه «أصل الأخلاق» بعد أن يتساءل حول اشتقاق كلمة «خير» ومعنى هذه الكلمة وتغييره ، كيف أن حق السؤدد، وليس مصدراً آخر، هو الذى يخول لأصحابه إطلاق التسميات«الخير»، «والشر» ، «الحق» و «الباطل»، «الخطأ» و«الصواب»، إلخ. . . لقد قالوا إن «هذا الشىء عبارة عن كذا وكيت» ومن هنا تملكوا ، إذا جاز هذا القول ذلك الفعل أو ذلك الشىء. ثم يبين أن تغيير معنى كلمة ، كأن يتحول «الخير» إلى نقيضه ، يعنى أن شخصاً آخر «أو قوة أخرى أو إرادة أخرى» يستولى عليها، ويطبقها على شىء آخر لأنه يريد شيئاً آخر مختلفاً؛ فـ «الشرير» فى تسميات العبيد، أو أخلاقهم ، هو بالضبط «طيب» الأرستقراطيين، أو أخلاق «السادة»(٧) . وهكذا فليست لتسميات الأخلاق وقيمها أية علاقة بالتعبير عن حقيقة مثالية أو أية حقيقة معطاة، وهى ليست وسيلة للمعرفة؛ ولكنها صورة فى خدمة أمر، أى فى خدمة سلطة.

هذا، ولا يتوقف نيتشه فى بحثه الفيلولوجى عند دراسة المسار التاريخى لنشوء المفاهيم، بل هو يحاول أن يكشف عن النوازع الحيوية التى تقف وراء اللغة، وذلك لأن التأويل هو نفسه عرض لبعض الحالات الفيسيولوچية ولمستوى فكرى معين للأحكام الغالبة(٨). ومعنى هذا أن الفيلولوچيا تتحول إلى جينيالوچيا أو علم النسابة. وهكذا فبعد أن كانت الفيلولوچيا تطرح مشكلة معنى الظاهرة، تجىء الجينيالوچيا فتطرح، إتماماً للمهمة، مشكلة قيمة المعنى من خلال البحث عن أصل الظاهرة.

إن الجينيالوجيا تماثل البحث عن الجذور(٩). وهذا البحث كان يوجهه السؤال التالى: كيف يمكن أن يظهر أى شىء من ضده؟ أو بالضبط الحقيقة من البطلان؟ أو الرغبة فى الوصول إلى الحقيقة من الرغبة فى الخداع؟ أو الصنيع الكريم من الأنانية؟ أو التبصر النقى الوضاء لدى الحكيم من الجشع والطمع؟

لقد كان نيتشه يدرك قيمة هذا السؤال، وكان ينظر إلى المنهج الجينيالوجى بمثابة متطلب جديد، أى بمثابة نقد لكل القيم: «إننا - يقول نيتشه - بحاجة لنقد القيم. .

وإن قيمة هذه القيم ينبغى أن تطرح، قبل كل شىء، على بساط البحث، ومن أجل ذلك، فمن الضرورى ضرورة ماسة أن تُعرَف الشروط والأوساط التى ولدتها، والتى كانت بمثابة الرحم الذى نمت فيه تلك القيم وتشوهت . . وأن تُعرَف تلك الشروط معرفة لم يعرف لها مثيل حتى الآن، بحيث لا يحتاج المرء إلى تقصيها والتحرى عنها. لقد كانت قيمة هذه القيم ، تعتبر أمراً معطى، واقعياً ، بمنأى عن كل شك وتساؤل. ولقد أضفيت على «الطيب» حتى الآن، قيمة أرفع من القيمة التى أضفيت على «الخبيث» دون أن يتخلل ذلك الإخفاء خردلة من شك أو قيراط من تردد. . فلهذا لنا أن نتساءل: ماذا لو كان العكس صحيحاً؟ أو ماذا لو كان فى الإنسان «الطيب» عارض من عوارض الانحطاط ، أو شىء من قبيل الخطرة؟ أو تضليل، أو سم زعاف؟ »[١٠].

إن هذا المتطلب الجديد، فى الحقيقة، صاحب نيتشه طوال مراحل حياته. بل إنه نشأ لديه منذ مراحل دراسته الأولى حيث توقف أمام السؤال التالى: « ما هو الأصل الذى ينبغى أن نعزو إليه ، فى نهاية الأمر، ما لدينا من أفكار حول الخير والشر؟» وبقى لديه هذا المتطلب حتى آخر كتاباته ، ولكنه طور مشكلته من السؤال حول أصل الخير والشر إلى هذه المشكلة الأخرى التى جعلها مهمة الجينيالوجى: «فى أية شروط عمد الإنسان إلى اختراع مقياسى الخير والشر بغية استعمالهما فى حياته؟ وما هى قيم هذين المقياسين بحد ذاتهما؟ هل أدياً حتى الآن، إلى عرقلة تطور البشرية أم إلى تعزيز هذا التطور؟ هل هما عارض من عوارض البؤس والفقر الروحى والانحطاط؟ أم أنهما ينمان بالعكس على الغبطة والقوم والعزم على العيش والشجاعة والثقة بالمستقبل والحياة؟»[١١].

إن هذه الأسئلة يجيب عنه فيقول: « وجدت فى نفسى أجوبة متعددة وجازفت بأجوبة متعددة. وشرعت أميز بين العصور والشعوب ومنزلة الأفراد. ثم حددت مواطن الخصوصية فى مشكلتى فكانت الأجوبة تتحول إلى أسئلة جديدة وأبحاث جديدة وأوضاع عامة واحتمالات، إلى أن تمكنت ، أخيراً من غزو بلد وترابه. . [بلد أو] عالم بأسره مجهول المعالم ، عالم مزدهر وفى عنفوان نموه، هو أشبه ما

يكون ببستان سرى لم يكن أحد يشتبه بوجوده حتى مجرد اشتباه»[١٢] ، وكان هذا العالم ، أو البلد، هو الجينيالوجيا.

إن الجينيالوجيا حركة معاكسة لاعتقاد الفلاسفة، لأنها النزول إلى الأصل فى مقابل الصعود إلى المُثُل . وهذا الأصل هو الذى ينتزع ، فى نظر نيتشه ، الأشياء من العالم الموهوم الذى صنعه الفلاسفة، ويعيدها إلى مجرى الحياة. فهو إذن يستجيب إلى رغبة شديدة وحازمة لمناقشة ونقد كل ثقافة مثالية. هذا ويتألف المنهج الجينيالوجى من ثلاث خطوات ، وهذه الخطوات الثلاث هى:

الأولى : أن نصنف الأحكام والعادات والقيم التى صدرت فى الماضى عند مختلف الشعوب، ومن هذا التصنيف يتوفر لدينا تاريخ عام للقيم. ولقد كان من الثابت بالنسبة إلى نيتشه عندما قام بالخطوة الأولى، أن الذهن التاريخى قد غاب عن الفلاسفة وعن مؤرخى الأخلاق لأنهم يعتقدون بأنه لا تربطنا صلة بالماضى، ويفكرون فى الماهيات والمثل وكأنها أشياء مستقلة بذاتها. وهم بذلك، فى الحقيقة يفصلونها عن مصادرها التاريخية. والجينيالوجيا تعلمنا الرجوع إلى هذه المصادر. إن التاريخ الجينيالوجى يكشف لنا فى العودة إلى الوراء، أو الأصل كل ما حدث من تحول لماهية ما أو ظاهرة ما، كما يكشف كل الحيل، وأشكال التنكر التى شوهت تلك الماهية الأولى . إن وراء كل حقيقة فى نظر الجينيالوجى ، كثرة كاثرة من الأخطاء، وصنوفاً عديدة من التزوير، ومهمة الجينيالوجيا هى البحث فى الأخطاء التى تولدت عن العقل خلال الأزمنة الهائلة الماضية، والمعتقدات الباطلة التى ظلت تتوارث حتى كادت، فى نهاية الأمر، أن تعد كامنة فى ماهية النوع الإنسانى[١٣] . وهكذا فإن التاريخ الجينيالوجى يعلمنا الاستخفاف بالحفاوة التى يحظى بها الأصل. وبالفعل، لقد كان نيتشه يقول: « فهم الأصل يحد من شأن الأصل»[١٤] .

الخطوة الثانية : إن المنهج الجينيالوجى يخبرنا ، بعد أن يصعد مباشرة إلى نقطة الانطلاق، أن وراء الأشياء والقيم «شيئاً آخر» سواها. ونلاحظ هذا، على وجه الخصوص فى كتاب «أصل الأخلاق» حيث يسعى نيتشه إلى تحليل العواطف

الأخلاقية مُبيناً ما تخفيه فى حقيقتها: فالصلاح والطيبة مثلا، ليسا إلا العجز الذى لا يلجأ للاقتصاص، والصبر ليس إلا جبنا ومسالمة من الكائن الضعيف[١٥]، ونلاحظ هذا أيضاً فى العديد من مؤلفات نيتشه الأخرى ، ففى كتابه «بمعزل عن الخير والشر» ينتهى من تحليله لأصل الفلسفة ، وهو «الميل إلى المعرفة»، وإلى النتيجة التالية: «لقد اتضح لى، بالتدريج، أن قوام كل فلسفة عظيمة، ظهرت حتى الآن، هو كونها اعترافاً لمبدعها، ونوعاً من الترجمة الذاتية لحياته.. وعلى ذلك فلست أؤمن بأن أصل الفلسفة هو «ميل طبيعى إلى المعرفة»، بل إن هاهنا، كما فى كل شىء آخر، ميلا طبيعياً آخر استخدم المعرفة و(المعرفة الباطلة!) أداة. إن كل من يتأمل الميول الطبيعية الأساسية للإنسان.. سيجد أنها كلها قد مارست الفلسفة فى وقت أو آخر»[١٦]. إن نيتشه ، كما نلاحظ ، يحاول ربط مفهوم ما بإرادة لجعله عرض إرادة لا يمكن تصوره من دونها ، فالميل إلى المعرفة هو نزوع للسيطرة؟ وهذا يعنى، وفقاً لنيتشه ، إذا نظرنا إلى شىء ما، فإنه يجب البحث عن القوى التى تستحوذ عليه والقوى التى تمتلكه ، والتى تعبر عن نفسها فيه، وتتخفى فيه فى نفس الوقت.

الخطوة الثالثة : إن الجينيالوجيا لا تكتفى ببيان القوى التى تقف وراء الظاهرة، بل هى تخطو خطوة إلى الأمام، فتقوم أصل القوى من زاوية نبلها أو خساستها ، إن الجينيالوچيا تعنى الأصل والنشأة، وكذلك الفارق فى الأصل، أى مدى نبالة وانحطاط الأصل، وهى ، بمعنى آخر ليست البحث عن أصل الظواهر والقيم فقط، ولكنها أيضاً تقدير قيمة الأصل، لأن مهمتها النقدية، وعندما يقول نيتشه فى مقدمة كتاب «إنسانى، إنسانى جداً» بأن : «التفاضل أو التراتب هو قضيتنا الرئيسية»[١٧]، فإنه كان يقصد أن يبرز أن تحديد كيفية صدور القيم، متوقف على هذا العنصر التراتبى الذى يقسم العالم بمواضيعه ورموزه إلى تعارضات مختلفة: « إلى أدنى»و «أعلى» ، «وضيع» و«نبيل» ، «شرير» ،و«طيب»، «سطح» و«عمق».

هذه هى إذن خطوات المنهج الجينيالوجى، باختصار. ومن حقنا أن نتساءل : ماهى النتائج المترتبة على تطبيقه؟ وماذا عساه يستفيد الجينيالوجى؟

لقد ترتب على تطبيق هذا المنهج على يد نيتشه مجموعة من النتائج الخطيرة؛ فى الدين والأخلاق والفلسفة والعلم والفن. . . إلخ، وهى نتائج يمكن تلخيصها فيما يلى:

أولاً : فى مجال الأخلاق خرج نيتشه من البحث الذى قام به فى تاريخ الأخلاق بنتيجة خطيرة، وهى أن منبع الأخلاق والقيم ليس أوامر الله ونواهيه كما تقول الأديان، كما أنه ليس العقل الإنسانى بما رُكب فيه من جوهر يأمر بالخير ويميز بينه وبين الشر كما يقول الفلاسفة ، وإنما هى الطبيعة الإنسانية بما فيها من غرائز، وعلى رأس هذه الغرائز جميعاً غريزة السيطرة وإرادة القوة. وليست هناك أفعال أخلاقية فى ذاتها، إنما هناك تفسير للأفعال الإنسانية وتقويم لها، حسب طبيعة الفاعل المقوم، وما تطمح إليه هذه الطبيعة من حب للسيطرة وإرادة القوة، والشىء الذى يقع عليه التقويم فى ذاته ليس أخلاقياً، وليس مضادا للأخلاق، وإنما هو على الحياد. ويترتب على هذه النتيجة الخطيرة على الفور نتيجة أخرى وهى «نسبية» القيم الأخلاقية وتغيرها بتغير الأشخاص والشعوب، أى يصبح من حق الإنسان وحده أن يضعه لنفسه القيم التى تساعده على تنمية حياته وتقويتها وإثرائها وهذا عكس الأخلاق التى سادت إلى الآن وتسود ، والتى هى أخلاق منافية للطبيعة فى نظر نيتشه ، ومتعارضة مع الواقع، ومضادة للحقيقة الفعلية، فهى مثلاً تدعو إلى الشفقة على الضعفاء مع أن قانوناً من أهم القوانين الطبيعية، هو قانون الانتخاب الطبيعى، ويعمل على زوال الكائنات غير الصالحة، وهذه النتيجة يمكن تلخيصها فى عبارة نيتشه «انهيار القيم».

ثانياً : فى مجال الدين كشف البحث الذى قام به نيتشه فى تاريخ الأديان، أن فكرة «الأولوهية» قد «نشأت» أى أن لها أصلاً تاريخياً. وأنها قد ظهرت لكى تفى بمقتضيات إنسانية خاصة فى ظروف معينة. وهكذا فالإله، حسب نيتشه، هو أحد مصنوعات الإنسان التى يرفعها فوق ذاته ليضمن لرأيه الانتصار، أو أنه من صنع الضعفاء لينتقموا من الأقوياء. وهذه النتيجة يمكن تلخيصها فى عبارة نيتشه «إن الإله قد مات».

ثالثاً : فى مجال الفلسفة كشف البحث الذى قام به نيتشه فى تاريخ الفلسفة أن هذه الأخيرة وريثة الدين، بل هى مصاحبة له، ومؤيدة لنتائجه؛ فتحت سيطرة الأفكار الدينية تعوّد الفلاسفة على تمثيل عالم آخر «ميتافيزيقى» ، الذى هو صورة من عالم الآخرة الدينى. وكشف أن تاريخ الميتافيزيقا نفسه هو تاريخ أخطاء أساسية اعتبرت حقائق أساسية، مثل فكرة «الجوهر»، و«الذات» ، و«العالم الحقيقى»، و«خلود النفس»، و«الغائية» إلخ. وهى أخطاء ناتجة فى رأيه عن كراهية الفلاسفة للسيرورة التى تمتنع عن إدراكهم فيبررون فشلهم فى إدراكها بتقسيم الوجود إلى مظهر وحقيقة أو إلى عالم مظاهر وعالم حقائق . وهذه النتيجة يمكن تلخيصها فى عبارة نيتشه «نهاية الميتافيزيقا».

رابعاً : فى مجال المعرفة والعلم والفن كشف البحث الذى قام به نيتشه فى تاريخ المعرفة الإنسانية أن المبدأ الذى تقوم عليه المعرفة ليس هو الحقيقة بل هو المصلحة، وأن الإنسانية تفضل الوهم على الحقيقة حتى تستطيع احتمال الوجود والاستمرار فيه. وبناء عليه يتحول المثقف من عارف يحمل رأسمال معرفى إلى داعية يعيد صوغ الأشياء صوغاً لاموضوعياً على مقاس الحاجة التى تصبح مؤسس فعله المعرفى وخلفيته التى تصنعه. وهذه النتيجة يمكن تلخيصها فى عبارة نيتشه «بطلان الحقيقية».

هذه هى إذن أهم النتائج التى ترتبت على تطبيق المنهج الجينيالوجى فى مجال الثقافة الإنسانية. وهى، بلا شك نتائج خطيرة فهى تقلب كل من آمن به الإنسان، وما اعتبره مقدساً لا يطاله الشك، رأساً على عقب . إنها نتائج تعنى، فى نهاية المطاف صرف كل علاقة ممكنة مع الإله والأديان جميعها، لكى ينشأ بدلاً منها معتقد جديد.

إن هذا المنهج الذى أسسه نيتشه، ورغم خطورته الواضحة، قد استمر من بعد موته. فقد أصبح نوعاً من العملة النقدية التى قام بتوزيعها وترويجها مجموعة من الفلاسفة الغربيين البارزين الذين أعطوه تسميات مختلفة فهو «الاستذكار» عند

هايدغر، و«التفكيك» عند ديريدا، و«الحفريات» عند فوكو. وقد كانت محاولات هؤلاء الفلاسفة تسعى، مثل محاولة نيتشه ، للوقوف عند الأصول لخلخلتها وتقويضها هذا، وأما المفكرون العرب فقد انقسموا فى مواقفهم من المنهج الجينيالوجى. ونستطيع أن نجزم بأن غالبيتهم قد عارضوه. أما الذين أيدوه فإنهم لم يعلنوا عن موقفهم بصراحة ، وإنما عبروا عنهم بتمويه كبير أثناء عرضهم لفلسفة نيتشه فى أعمالهم.

وينبغى القول أن الدكتور فؤاد زكريا هو أحد «الرافضين الكبار» للمنهج الجينيالوجى. ونظراً لقصر هذه الدراسة ، فإننا سنكتفى بعرض موقفه دون غيره، لنتعرف على أسباب هذا الرفض. والذى يمكن قوله عن موقف الدكتور فؤاد زكريا أنه لا يرفض المنهج الجينيالوجى فقط، وإنما يرفض كل فلسفة نيتشه ويضعها موضع النقد فى المسائل التى يعالجها.

يقول الدكتور فؤاد زكريا فى نقده للمنهج الجينيالوجى : « إن نيتشه يتحدث عن أصل المعرفة، وأصل الحقيقة، فيراهما فى النفع الحيوى، ويردهما إلى عوامل خارجة تماماً عن نطاق السعى الخالص إلى المعرفة والحقيقة. وفى وسعنا أن نوجه إلى هذا الرأى النقد [التالى]: فمن أين، وعن طريق أية تجربة، عرف أن "أصل" المعرفة هو النفع الحيوى، إن هذا الأصل باعترافه هو ذاته تاريخى، أعنى أن المعرفة البشرية كانت فى الأزمان السحيقة، بل فى عهود التطور الأولى، على النحو الذى يقول به، ثم صارت إلى ما عليه هى الآن. ومثل هذا الرأى لن يجد ما يدعمه إلا إذا استند إلى أساس علمى متين ، وهو ما لم يحاول نيتشه أن يقوم به، ولم يكن الاتجاه الذى سار فيه تفكيره يمكنه من القيام به، فعلى أى أساس إذن يقدم نيتشه مثل هذا الرفض؟»(١٨). ويجيب بأن فكرته تنطوى بلا شك على نفس الخطأ المنهجى: «فهى تفترض القدرة على تجاوز التجربة الإنسانية فى صورتها الحالية، لتعود إلى أصولها الأولى. فإذا كانت الصورة الحالية للمعرفة قد تغلغلت فينا منذ عهود كبيرة، كما يعترف هو ذاته، فلا سبيل إلى أى تجربة آدمية إلى الخروج عنها أو الاهتداء إلى أصلها. ذلك لأن نيتشه ، بوصفه كائناً تسرى عليه نفس الحدود التى يتحدد بها سائر

البشر، لابد أن يكون هو الآخر غارقاً فى تلك الصورة الحالية للمعرفة البشرية، عاجزاً عن تجاوزها وعن كشف أصلها، مادامت تفرض نفسها على الجميع، بحيث تبدو لهم صورة أصلية راسخة فى نفوسهم»(١٩).

إنه من الواضح، من خلال هذا النص أن الدكتور فؤاد زكريا يستعمل فى نقده للمنهج الجينيالوجى عند نيتشه نفس الحجة التى استعملها هذا الأخير فى نقد منهج الفلاسفة الإنجليز فى دراسة أصل مفهوم الخير والأفعال غير الأنانية، وهى الحجة القائمة على "النسيان" . ولذلك فإن نقد الدكتور فؤاد زكريا، فى الحقيقة لا ينطبق على نيتشه وإنما ينطبق على الفلاسفة الإنجليز. فهؤلاء هم الذين قالوا أن منفعة الفعل غير الأنانى يفترض أنها مصدر الاستحسان الممنوح لهذا الفعل، ويفترض أن هذا المصدر قد نسى. أما نيتشه، فإنه يرى أن العكس هو الصحيح، ويسخر من مفهوم "النسيان" ويرى أنه غير ممكن ولا يمكن الدفاع عنه تاريخياً: «إلا إذا افترضنا - كما يقول - أن المنفعة المتأتية عن مثل تلك الأفعال قد كفت عن الوجود. وهذا غير صحيح والأصل أن تلك المنفعة هى التجربة اليومية فى جميع الأزمان. ومن هنا فهى عوضاً أن تزول أن تنسى فإنها تبرز أكثر فأكثر»(٢٠).

هذا، وأما النقد الثانى الذى يوجهه الدكتور فؤاد زكريا إلى المنهج الجينيالوجى، والذى مفاده أن فكرة نيتشه عن أصل الظواهر لا تستند على أساس، فإنه فى الحقيقة نقد يستبعد مجهوداً علمياً كبيراً قام به نيتشه من أجل إثبات آرائه؛ فالأساس الذى قامت عليه أفكار نيتشه هو فقه اللغة، أى تراثاً كاملاً من النصوص. ومن هذه الناحية فإن منهج نيتشه يدل فى الحقيقة على مشروع تنقيحى كبير لا يمكن نكرانه. وربما كان هذا المجهود التنقيحى والدراسة الطويلة المجهدة، والإنضباط الكبير، وغيرهما من المتطلبات التى يتطلبها المنهج الجينيالوجى، من الأسباب الكبرى التى جعلت المفكرين العرب ينصرفون عنه.

هذا، وعلى الرغم من هذه الاعتراضات التى يعترضها الدكتور فؤاد زكريا على المنهج الجينيالوجى، فإنه يرى مع ذلك أن هذا المنهج : «من الممكن استخدامه بنجاح

في كشف «طبيعة» الظاهرة[٢١]، والسبب : «أن من أول أصول المنهج العلمي رد الظواهر إلى أصلها التاريخي ومعرفة طبيعتها الحاضرة من خلال ماضيها»[٢٢]. ثم يستدرك، فيقول: « ومن ذلك فلا ينبغي أن يستغل هذا في الحط من قدر الظاهرة في صورتها الحالية ما دامت الصورة الأصلية قد اندثرت ونسيت تماما»[٢٣]. وهكذا فإن الدكتور فؤاد زكريا يبدو أنه يقع في تناقض في نفس الفقرة؛ فهو من جهة يقر بإمكانية استخدام المنهج الجينيالوجي بنجاح في التعرف على أصل الظاهرة، ولكنه من جهة أخرى ، يرفض أن يستخدم في تقدير قيمتها الحالية والحط منها ما دام لا يمكن الاهتداء إلى أصلها[٢٤]. إنه يعترف من جهة بإمكانية معرفة أصل الظاهرة، وينكر من جهة أخرى استحالة هذه الإمكانية!. وهو يعيب من جهة على المنهج الجينيالوجي افتقاره إلى أساس علمي يقوم عليه لأنه تاريخي، ومن جهة أخرى يعترف أن البحث التاريخي أو البحث عن الأصل هو من أول أصول المنهج العلمي!.

وهكذا، يتضح لنا أن موقف الدكتور فؤاد زكريا من المنهج الجينيالوجي هو موقف حذر: إنه يثبت وينفي، ويقر وينكر، يغفل ويعمم. باختصار، لقد كان يريد أن يقول، دون أن يجتهد كثيراً في البحث عن أسباب مقنعة : إننا لسنا في حاجة إلى المنهج الجينيالوجي ، رغم فائدته.

إن هذا الموقف الحذر من المنهج الجينيالوجي، لا نجده عند الرافضين له فحسب، بل نلاحظه أيضاً عند المفكرين العرب المرحبين به الذين لم يكن حذرهم ينبع من خطأ الفروض التي يفترضها المنهج الجينيالوجي ، ولكن من الخوف من المحيط الذي كانوا يعيشون في وسطه لئلا يتهمون بالزندقة . وقد كانت هذه هي حال فرح أنطون وسلامة موسى وعبدالرحمن بدوي. وسنقتصر هنا أيضاً، على مثال واحد لبيان موقف المرحبين بالمنهج الجينيالوجي، هو موقف عبدالرحمن بدوي.

إنه مما لا شك فيه أن النيتشوية قد لاقت ترحيباً كبيراً لدى عبدالرحمن بدوي، فقد دعا هذا الأخير إلى نيتشه بحماسة منقطعة النظير، وهو يعتبر عمله مماثلاً لمشروع

نيتشه الفكرى الكبير فى «تبديل القيم» ؛ فيقول: « ليس من شك فى أن الشعور بهذه الحاجة [أى الثورة الرُّوحِيَّة على القيم القديمة] قائم فى نفوس أبنائه [أى أبناء الوطن العربى] . . فهم لم يعودوا يمنحون القيم القديمة السائدة من الثقة و الإيمان ما كانت تمنح من قبل. . وأصبحوا ينكرون اليوم ما كان أسلافهم يحتفلون له أشد الاحتفال، ويتبرمون بأشياء كانت من قبل موضع التقديس. وكانت من نتيجة هذا كله أن أصبحت الطبقة الممتازة من أبناء هذا الجيل. . على حال من الشك قد يبلغ عند البعض درجة اليأس والقنوط. . وهى من أجل هذا كله فى حاجة إلى اكتشاف نظرة فى الوجود جديدة. . وإلى التمهيد لإيجاد هذه النظرة الجديدة قصدنا حين فكرنا فى هذا المشروع الضخم، مشروع تقديم «خلاصة الفكر الأوروبى» إلى أبناء هذا الجيل. . فنحن نريد عن طريقه أن نعرض عليهم العقل الأوروبى وهو يناضل ويجاهد فى سبيل إيجاد نظرة فى الحياة وفى الوجود، من شأنها أن تخلق طابعاً ممتازاً من الإنسانية، وصورة جليلة سامية من صور الحضارة»[٢٥].

من الواضح، إذن، أن مشروع النهضة لبدوى يقوم على مشروع نيتشه فى تبديل القيم القديمة بقيم جديدة، ولكن بدوى لا يكشف عن المنهج الذى يجب اتباعه فى سبيل تحقيق مشروعه، على الرغم من أنه يعرف أن هذا المنهج ليس سوى المنهج الجينيالوجى ، وإنما يكتفى فقط بالإشارة إلى أهمية النتائج التى حققها على يد نيتشه وتبرير بعض أخطاء فروضه، فهو يقول مثلاً: معلقاً على العلماء الفيلولوجيين الذين أتوا بعد نيتشه ، مثل بريال الفرنسى، الذين أثبتوا خطأ تحليلاته الفيلولوچية التى تربط بين الكلمات والذين يطلقونها: « إن لنيتشه الفضل، على الرغم من هذا كله، فى أنه وجه أنظار الفيليوجيين إلى البحث فى هذه الناحية، واستطاع بعضهم أن يظفر ببضعة اكتشافات مهمة تتصل باشتقاق الكلمات التى تدل على معان أخلاقية»[٢٦]. ويصف النتائج التى حققها بحثه فى أصل ومصادر الأخلاق بأنها على أقصى درجة من الأهمية[٢٧]، بل أكبر عمل وأخطره فى الحياة الإنسانية[٢٨]. ورغم كل هذا المديح والإطراء للمنهج الجينيالوجى ، وهو على كل حال صادق فى صميمه، إلا أننا لا نعثر عند بدوى على دعوة صريحة لاستخدامه فى تراثنا.

وهكذا، فإننا نصل إلى المفارقة العجيبة التالية: الرافضون للمنهج الجينيالوجى يقرون بفائدته ولكنهم يرون أنهم فى غنى عنه. والمرحبون به يؤكدون كذلك على فائدته ولا يجرؤون على الدعوة لاستخدامه. فلماذا هذا الموقف المزدوج المحير من هذا المنهج: أى نعم ولا فى نفس الوقت؟

يبدو لنا أن هذا الموقف المتردد بين الرفض والقبول يعود إلى جملة من الأسباب لعل أهمها أن المفكرين العرب وجدوا أنفسهم أمام منهج يحتوى من جهة، على الكثير من المبادئ التى تبصر الناس بحقهم فى التحرر من عبودية التقاليد والعادات، وتجتث ما غرست قرون العبودية فى الوطن العربى - الإسلامى من استكانة حولت إيمان أبنائه إلى استسلام. ولكنه، من جهة أخرى يفضى وفى الغالب، إلى ما يزعزع الأديان وينال من الأخلاق. وهو ما لا يتفق مع الهيئة الاجتماعية التى ينتمى إليها أغلب المفكرين، سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين ابتداء من فرح أنطوان وصولاً إلى يسرى إبراهيم، ومروراً بسلامة موسى وفليكس فارس وعبدالرحمن بدوى وهشام شرابى وغيرهم. ونحن نجد باقة كاملة من الأقوال تؤكد هذا الرأى؛ فهذا فرح أنطوان يقول عن فلسفة نيتشه: «إنها تحتوى على الكثير من المبادئ التى لا نرى الآن موضعا لها فى الشرق ولا يمكن العمل بها فى [هذه] الهيئة الاجتماعية .. ولما كنا شرعنا فى العودة إلى تلخيص فلسفة هذا الفيلسوف فسنستمر فى الخطة التى اتبعناها من قبل وهى أن نلخص منها ما لا يمس الأديان والعادات الحاضرة، لأن غرضنا استخراج لباب القوة والحماسة من كتبه والإعراض عما بقى»[٢٩]. وهذا يسرى إبراهيم يقول: «لابد أن نؤكد هنا أنه من السذاجة أن يتصور أحد أن دراسة فلسفة نيتشه والوعى بها يمكن أن يزعزع إيماننا بالله أو يبدد اعتقادنا فى القيم النبيلة التى بشرت بها الأديان السماوية. وإذا كان هناك بعض الدراسات التى انتقل أصحابها مباشرة من دراسة نيتشه إلى الإيمان بما يقول، فليس هناك ضرورة فلسفية أو منطقية على الإطلاق تفرض على كل باحث فى فلسفة نيتشه أن ينتهى إلى هذه النتيجة»[٣٠].

هذا، ويبدو لنا أن السبب الآخر، فى تردد المفكرين العرب فى اعتماد المنهج الجينيالوجى فى أبحاثهم هو أن هذا المنهج يتطلب، كما قلنا فى السابق، جهداً تنقيحياً كبيراً، ودراسة طويلة مجهدة ، وهو أمر بعيد عن متناول أغلبية الباحثين.

وفى الأخير، يبدو لنا أن التردد فى استعمال المنهج الجينيالوجى من طرف المفكرين العرب، يدل بوضوح على أن الغرض من الاهتمام بنيتشه لا علاقة فعلية له بتطبيق مصادرات النيتشوية تطبيقاً صارماً، بل الغرض من ذلك يرجع إلى اعتبارات ذرائعية ، فإن نيتشه غالباً ما كان يُرَدُّ عندهم إلى موقع المعلق، أو الناطق الرسمى باسمهم، أو يتخذ كذريعة تمكن الواحد منهم من عرض إيمانه الفلسفى.

مراجع البحث

1- Nietzsche (F) : Le gai Savoir, Trad . P. Klossowski , Gallimard, 1989 , fragment 377.

٢ - جيل دولوز : نيتشه والفلسفة، ترجمة أسامة الحاج ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت، ١٩٩٣ ، ص ص ٧-٨.

٣ - عبدالسلام بنعبدالعالى : أسس الفكر الفلسفى المعاصر (مجاوزة الميتافيزيقا) ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، ط ٢ ، ٢٠٠٠، ص ٣٢.

٤ - ميشيل فوكو : جينالوجيا المعرفة ، ترجمة أحمد السطاتى وعبدالسلام بنعبدالعالى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، ١٩٨٨، ص٣٣.

5 - Nietzsche : Par - delà le bien et le mal , Trad . Geneviève Banquis, Union Générale d'Editions , 1988, fragment 22.

6 - Rey (J-M) : I'Enjeu des signes "lecture de Nietzsche" , les éditions du Seuil, 1971, P.175.

٧ - فريدريك نيتشه : أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة حسن قبيسى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨١، البحث الأول، الفقرة٢ .

8 - Nietzsche : Les Oeuvres Philosophiques complètes, tome XII , Trad, Hervier, n.r.f, Gallimard, 1979, P.160.

9 - Choulet (p) : Nietzsche in "La philosophie allemande de Kant à Heidegger" , P.U.F, P.239.

١٠- نيتشه : أصل الأخلاق، المقدمة ، فقرة ٦ .

١١- المصدر نفسه، المقدمة ، فقرة ٣.

١٢- المصدر نفسه ، فى الفقرة نفسها.

obeikandl.com

13- Nietzsche : Le gai Savoir , fragment 110.

14- Nietzsche : Par - delà le bien et le mal, fragment 6.

17- Nietzsche : Humain, trop humain, I, trad. R. Rovini, col. Folio, Gallimard, Préface, Fragment 7.

١٨- فؤاد زكريا : نيتشه ، دار المعارف، ط٢ ، ص ٨٠.

١٩- المرجع نفسه، فى الصفحة نفسها.

٢٠- نيتشه : أصل الأخلاق وفصلها ، البحث الأول، فقرة ٣.

٢١- فؤاد زكريا: نيتشه، مرجع سابق، ص ٨١.

٢٢- المرجع نفسه فى الصفحة نفسها.

٢٣- المرجع نفسه، ص ٨٠.

٢٤- المرجع نفسه فى الصفحة نفسها.

٢٥- عبدالرحمن بدوى: نيتشه ، وكالة المطبوعات، الكويت، ط ٥ ، ١٩٧٥، تصدير المؤلف، ط-ل.

٢٦- المرجع نفسه، ص ١٧٥.

٢٧- المرجع نفسه ، ص ١٩٦.

٢٨- المرجع نفسه ، ص ٢٠١.

٢٩- فرح أنطوان ، الجامعة، ١٩٠٨، ص ص ٤٢-٤٣.

٣٠- يسرى إبراهيم : نيتشه عدو المسيح، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٠، المقدمة، ص٨.